"عصابـــات بغـــداد" لعائـــدة شليـــفر

محاولة لإسكات الأصـوات الوحشية المزمجرة في نفوس القتلة

لندن / عدنان حسين أحمد

لقطة من الفلم

لا بد من الإقرار أولاً بأن فيلم "عصابات بغداد" للمخرجة السويسرية عايدة شليفر، من أصول عراقية لبنانية، هو فيلم مُشتغَل بحِرَفية عالية وعناية فائقة تدلّلان على وضوح الرؤية الإخراجية لمخرجة الفيلم، وتمكّنها من البناء بطريقة فنية لا تخفى على متلقي هذا النمط من الخطابات البصرية المتفردة. أنجزت عايدة هذا الفيلم عام ٢٠٠٧، أي بعد اشتداد الأزمة الطائفية التي بلغت ذروتها في العراق عامي ٢٠٠٥ و ٢٠٠٦ بفعل الأحزاب العراقية التي وفدت إلى العراق من خارج الحدود، هذا إضافة إلى المعطيات الداخلية التي أججت هذا الاحتكاك الطائفي الذي لا دخل لمكونات الشعب العراقي الرئيسية فيه. وعلى الرغم من أنَ المخرجة شليفر لا تريد الخوض في التفاصيل الطائفية، لأنها محايدة أولاً، ولأن عصابات بغداد آنذاك كان هدفها الابتزاز المادي، وليس الانتقام الطائفي، حتى لو لجأت لاحقاً إلى التعذيب والقتل والتشويه، ويبدو أنّ الوحوش الكامنة في داخلهم تستفيق في المراحل التي تضعف فيها الدولة أو يغيب فيها القانون، أو أن يتحول بعض مفاصلها في الشرطة والجيش والأجهزة الأمنية إلى أجزاء فاعلة من هذه العصابات التي تبتز الناس وتقتلهم بهدف الإثراء السريع من جهة، وبغية إسكات الصوت الوحشي المزمجر في أعماقهم من جهة أخرى.

لقد انتقت شليفر عدداً غير قليل من هذه الشخصيات المأزومة نفسياً التي لم تستطع الثبات ومواجهة الأزمة العصيبة التي يمرّون بها، فقرروا الانسحاب من ساحة المواجهة القاسية، و"الهروب" بشكل أو بآخر إلى مصر أو بقية الدول العربية المجاورة للعراق.

إن منْ يلقي نظرة سريعة على شخصيات هذا الفيلم الوثائقي المُتقَن والمؤثر في آن معاً سيجد أن المخرجة قد نجحت في التنويع أولاً، كما أنها ركزت على غالبية طبقات المجتمع العراقي فهناك المحامي، والتاجر علي عريبي عودة، والمرأة البسيطة حليمة الساعدي، وولدها وسام الذي بلغ المرحلة النهائية من "عراق ستار"، وشقيقه وسام الساعدي الذي عُذّب قبل أن يلقى حتفه على أيدي هذه العصابات الوحشية، والشاعرة الجميلة رنا جعفر ياسين التي تركها والدها تواجه مصيرها المحتوم أمام القتلة، هؤلاء جميعاً وغيرهم من الشخصيات التي أثثت متن الفيلم قالوا أشياء مهمة تتجاوز التوصيفات العادية للكلام العابر، ويبدو أن كاتب السيناريو أو واضع الأسئلة قد نجح هو الآخر في استخراج هذا الكلام النفيس الذي قالته معظم شخصيات الفيلم من دون استثناء.

بطبيعة الحال، لا يمكنني أن ألقي اللوم كلياً على هذه الشخصيات التي "هربت" من ساحة المواجهة، فلو كنت مكانهم لهربت أيضاً طالما أن الدولة متوارية، والقانون غائب تماماً، لكن دعونا نبحث في الأسباب التي دفعت هذه الشخصيات برمتها للهروب إلى القاهرة. فالمحامي ورجل علي عريبي عودة قرر الهروب من بغداد بعد أن تعرض لأكثر من عملية خطف وبعضها بسيارات الشرطة، كما تعرّض ولداه سيف عريبي وغيث عريبي للخطف أيضاً بحيث حسم الأخير أمره بالاتجاه إلى أي بلد، وعدم العودة نهائياً إلى العراق.

الشاعرة والفنانة التشكيلية رنا جعفر ياسين تم خطفها بطريقة غريبة من قبل الجيران الذين انتبهوا إلى أنها بدأت تبيع أغراضها المنزلية لكي تغادر العراق نهائياً بعد أن وصلتها رسالة بداخلها رصاصة من (شورى المجاهدين)، وحينما استنجدت بوالدها تركها تواجه مصيرها المحتوم لوحدها من دون أن يحرك ساكناً. عائلة حليمة الساعدي التي فقدت ولدين في عمر الورود، الأول كان مشروعاً لمطرب ناجح لأنه وصل إلى المرحلة النهائية في مسابقة "عراق ستار" وكان من المؤمل أن يصبح نجماً فنياً، والثاني وسام الذي أُختطف ثم قُتل تاركاً أفراد أسرته يستذكرون حجم العذاب الذي تعرّض له على أيدي المجرمين القتلة. ربما كان وجود المعالج النفسي الدكتور علاء مرسي مهماً في خلق الموازنة بين هذا الكم الكبير من عذابات الضحايا، وبينه هو كطبيب مختص يحلل الأذى النفسي والجسماني الذي يتعرض له الضحية إثر وقوعه في خطر شديد يهدد هويته وحياته، وقد شخّص هذه الحالة المرضية بـ "اضطراب ما بعد الأزمة"، الذي يمكن أن يفضي إلى التوتر، والاكتئاب، وحتى البلل إذا كان عنصر الخوف مستمراً، ولكنه نصح المرضى بعدم اعتزال الحياة، والانقطاع عن ممارسة الأنشطة اليومية التي يمكن أن تخفف من وطأة الأزمة التي يمر بها الضحية.

ثمة أسئلة كثيرة أثارتها شليفر في هذا الفيلم لعل أبرزها غضب الضحايا من البرلمانيين والمسؤولين الكبار في الدولة الذين جيء بهم بعد الاحتلال، ففي الوقت الذي يناقشون فيه امتيازاتهم ومستحقاتهم المالية كان هناك مئات، وربما آلاف العراقيين الذين خُطفوا، أو غُيِّبوا، أو قُتلوا من دون أن يهتز للسياسيين جفن، هذا ما يؤكد المحامي علي عريبي، أما الشاعرة رنا جعفر فهي تعتبر الوطن ضحية هو الآخر، ولكنها تصب جام غضبها على السياسيين العراقيين الجُدد المنقطعين إلى مصالحهم الشخصية وشؤونهم اليومية الخاصة. وهذا الأمر ينسحب إلى بقية شخصيات الفيلم التي لم تجد بُداً من الهرب إلى مصر أو أية دولة عربية مجاورة. وعلى الرغم من مسألة اتفاقهم على الهرب أو مغادرة العراق، إلاّ أنهم يختلفون في مسألة العودة إلى الوطن بهدف إصلاحه وبنائه. فالمحامي ورجل الأعمال علي عريبي يصر على ضرورة العودة إلى الوطن لبنائه وإصلاح النفوس المريضة التي توحشت في مرحلة ما، وكما يذهب الطبيب النفساني علاء مرسي فإن القتلة والخاطفين والمجرمين هو ضحايا أيضاً للظروف الاستثنائية التي مرّ بها العراق بعد الاحتلال، وهم يحتاجون العلاج شأنهم شأن الضحايا الناجين أو المغدور بهم. إذاً، يعتقد المحامي علي عريبي بأن الهمجية لا يمكن أن تستمر، وأن الدولة، بمؤازرة الخيّرين من أبناء لا بد أن يضعوا حداً للتسيّب والانفلات الأمنيين، لكي تعود الحياة العراقية الآمنة إلى مجاريها الطبيعية. أما الشاعرة رنا جعفر فتعتقد أن رحلتها سوف تطول، وأن الشوارع التي تمرّ عليها بسيارتها الذاهبة خارج الحدود ربما لن تراها مرة ثانية، كما أنّ ولد علي عريبي يكره العودة للعراق لأنه تعرض إلى ضغوط نفسية شديدة، بينما يضع الثاني سقفاً زمنياً لا يقل عن خمس سنوات للتفكير بالعودة إلى العراق إذا ما تحسنت الظروف الأمنية. أما السيدة حليمة الساعدي فإنها تتمنى من الله أن "يرفع الغُمة عن هذه الأمة" وهي التي حملت جنازتي ولديها، بينما كانت تتوقع أن يحملا هما جنازتها حينما تذهب إلى مثواها الأخير.

وعلى الرغم من المحن الكبيرة التي مرّت بها شخصيات الفيلم الرئيسية إلاّ أن المخرجة شليفر ختمت الفيلم بلقطات جميلة ومعبِّرة تزرع الأمل في نفوس العراقيين، وتتمنى لهم العودة إلى حياتهم الطبيعية، ولعل شلالات المياه الجميلة، والأنهر المتدفقة، ونُصب الحرية، وشوارع بغداد المكتظة بالسيارات، والأطفال الذين يلوِّحون بأكفهم الصغيرة هي نماذج جميلة توحي للعراقيين جميعاً بأن يعضّوا على جرحهم الكبير، ويطووا صفحة الماضي المؤلمة، ويبدأوا حياتهم من جديد. وفي الختام لا بد أن أشير الى أن "عصابات بغداد" هو واحد من أهم الأفلام الوثائقية العراقية المحايدة التي لم تتدخل فيها المخرجة كثيراً بآراء الشخصيات، وإنما تركتهم يعبِّرون عن أنفسهم بحرية مطلقة، فكان الفيلم بالنهاية تحفة بصرية أمينة تضاف إلى رصيد المخرجة التي تؤكد حضورها الفاعل في المشهد السينمائي العالمي.

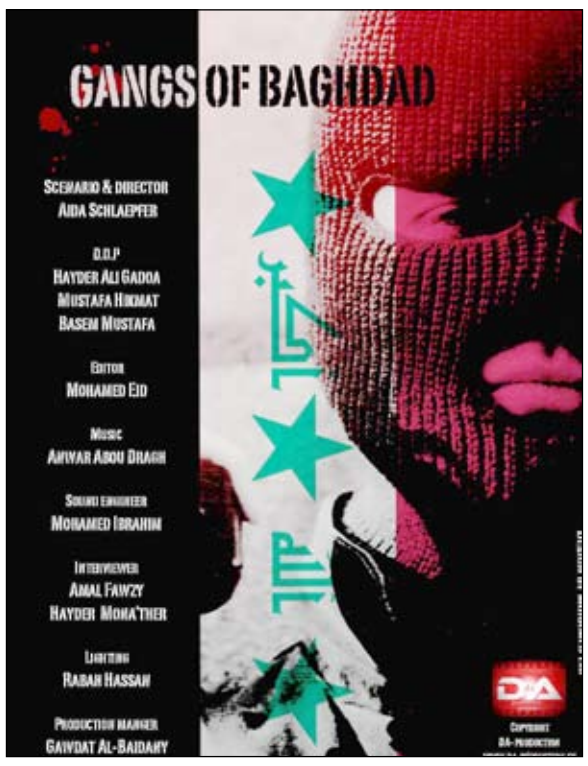

غزو المسلسلات الأجنبية للفضائيات العربية

الغاية من اختيار هذه المسلسلات وعرضها بهذه الكثافة

محمد الكحط

يمكن التأكيد أن فضائية الـMBC هي أول فضائية بدأت بشراء وعرض المسلسلات التركية، كانت البداية موفقة، لكن كثرتها والإفراط فيها هي نقطة سلبية، لعدة أسباب، ولنسأل عن السبب الذي يجعل هذه الفضائية وهي الأكثر مشاهدة في البلدان العربية كما أشارت العديد من نتائج الاستبيانات التي أجريت، الى أن تتوجه هذا التوجه، هل لرخص ثمن هذه المسلسلات، أم لغايات مدروسة مسبقا، هذا السؤال نطرحه على إدارة الفضائية وعلى القائمين بالاتصال فيها، وبالذات من هم وراء قرار شراء وعرض هذه المسلسلات.

ولكن يمكننا أن نشير إلى بعض أسباب الاختيار.

أولا: إن هذه المسلسلات تغطي ساعات بث كبيرة، ففضائية الـ MBC مثلا، تعرض في آن واحد عدة مسلسلات تركية في اليوم في جميع قنواتها التي تبثها على مدار الساعة، وكذلك أبو ظبي ودبي، ويعاد بثها مرات عديدة في اليوم ومن ثم يتم عرض جميع حلقات الأسبوع لكل مسلسل أيام العطل أي الجمعة والسبت والأحد، وهذا يوفر تغطية لنشاطها، لساعات طويلة دون جهد كبير.

ثانيا: إن هذه المسلسلات تجذب مشاهدين بأعداد كبيرة، مما يكسب الفضائية قدرتها على الحصول على إعلانات تجارية وزيادة أرباحها.

ثالثا: اختيار مسلسلات ذات مضامين تتفق مع نهج القائمين بالاتصال في هذه الفضائيات أو تحقق أهدافا خاصة لمن يمتلكون هذه الفضائيات سواء كانوا أشخاصا أم حكومات، وقد يكون ذلك دون قصد لبعضها.

رابعا: دوافع اقتصادية يمكن تقديرها، مثلا نجد اليوم العديد من رؤساء الأموال والمواطنين يفكرون بالاستثمار أو السياحة في تركيا. فكانت المسلسلات وسيلة دعائية ناجحة للسياحة أو الاستثمار في تركيا.

خامسا: دوافع سياسية واجتماعية، من خلال عرض تلك الأفكار التي تحوي مضامين سياسية مقصودة في المسلسلات المعروضة، وهي عديدة، منها غرس أسلوب حياة جديدة يريدها المرسل في المجتمع.

لقد عالجت بحق بعض المسلسلات العادات والتقاليد المتخلفة في الريف التركي بجدية، وأوصلت رسائل جيدة للمتلقين حول ضرورة إعادة النظر بتلك العادات البالية، ولا بد من نشر التعليم ومحو الأمية خصوصا للنساء في الريف، فهذا الزمان لا يتحمل بقاء تلك العادات كما هيّ.

لكن من جهة أخرى قليلة هيّ الأعمال التي عالجت الصراع بين الفلاحين والملاكين أو بين العمال وأرباب العمل، أو عالجت أسباب الفقر في المجتمع.

وكأن المطلوب من كل ذلك الزخم الكبير من المسلسلات التركية هو عكس ثقافة الغرب بكل ايجابياتها وسلبياتها، وغرسها في أذهان المشاهد العربي والتركي قبله، فحياة الترف والتحضر وقصص الحب والغرام وغرس الروح الاستهلاكية في المجتمع، وصور الانحلال الخلقي، وتدهور العلاقات العائلية وانتشار المافيات والعصابات وخلق صورة الرجل الفرد الخارق القادر لوحده أو مع بضعة أنفار على تغيير الواقع، وغيرها من المظاهر الاجتماعية الأخرى، ومن خلال التكرار ونجاح هذه المسلسلات فنيا سيتم بالإكراه شيئا فشيئا تغيير سلوك الناس كما خطط ورسم له المنتج والمخرج وكاتب السيناريو وصاحب الفضائية التي عرضت هذه المسلسلات.

والأنكى من ذلك أننا نرى في مسلسل "وادي الذئاب" أحداثا سياسية آنية تحدث في المنطقة المسماة بـ "الشرق الأوسط" والمسلسل يرسم لنا كل شيء وكأنه مخطط له أن يغرس في أذهاننا ماذا سيحصل لاحقا لنكون مهيئين لاستقباله دون أي رد فعل، أي امتصاص رد فعل الصدمة مقدما، ومن يتابع هذا المسلسل بكل تفاصيله سيدرك جيدا ما أود قوله.

هذا جعلني أتصور أن من بين المعروض الجيد هنالك ما هو سمٌ قد خلط مع العسل الذي نتناوله يوميا دون أن ندري أو نعلم، وأخطر السموم هي سموم العقل، فغرس كل تلك التوجهات والثقافات الغريبة عن مجتمعاتنا سواء العربية أو التركية، بسلبياتها وإيجابياتها، هو ما تهدف إليه معظم الأعمال المقدمة.

وهنا أستعير استنتاج أحد زملائي الذي صرح وبعد نقاشنا حول الموضوع، بأن تركيا كانت يوما جسرا لنقل الثقافة العربية الإسلامية إلى أوربا، واليوم تحاول أن تلعب الدور نفسه ولكن بالاتجاه المعاكس أي نشر الثقافة الأوربية ونقلها إلى الدول العربية والإسلامية، فهل لدينا البدائل...؟

هل عجزت الدراما العربية عن أن تقدم أعمالا توازي الأعمال التركية...؟

هل لدينا نقص في كتّاب السيناريو أو في الفنانين من الممثلين والمخرجين...؟

هل لدينا أزمة إنتاج فنية لا يمكن حلها، ومن يقف وراءها...؟

هل هنالك سياسات تعيق حرية الإنتاج لأعمال تضاهي المعروض التركي..؟

هل هنالك عوائق لحرية التعبير والإبداع في الدول العربية...؟

أنتظر الإجابة من الذين يهمهم الأمر، وأتمنى ذلك.

علماً أنا لست ضد عرض المسلسلات التركية أو غيرها، لكن علينا أن نعرف ماذا نختار من مسلسلات، وعدم الاستخفاف بعقول المشاهدين، أو اللعب بمصيرهم، فواجب القائمين بالاتصال هو الرقي بالمشاهد العربي وتنوير وتطوير عقله وذهنه، أم لديكم أهداف أخرى...؟

فشئنا أم أبينا، لقد أثرت المسلسلات التركية في المسلسلات العربية، وقلت مشاهدتها كثيرا، مما سيضعف الأعمال الفنية العربية، نحتاج إلى تشجيع الأعمال الفنية العربية، بل لتكن ظاهرة كثرة المسلسلات الأجنبية حافزا للفنانين العرب ليقدموا أعمالاً أكثر نجاحا.

ومن جهة أخرى، على المسؤولين في الفضائيات العربية أن يحسنوا الاختيار من المسلسلات الأجنبية، لا أن يتم عرض أية أعمال مهما كانت طبيعتها، ويتطلب تدقيق مضامينها ورسالتها، بروح المسؤولية عن المجتمع ومستقبله.

انطلاق مهرجان بغداد السينمائي الدولي الرابع ٢٠١٢

المدى الثقافي

ملصق المهرجان

افتتحت أمس في بغداد الدورة الرابعة لمهرجان بغداد السينمائي الدولي بمشاركة ٣٠٠ فيلم من ٦٠ دولة. وقد اكتملت الاستعدادات الفنية والإدارية للمهرجان، ومن يزور مكان إقامة المهرجان سيشهد حركة دؤوبة وورشة عمل متواصلة في أروقة فندق عشتار شيراتون في قلب العاصمة بغداد، وفي أجمل إطلالة وعلى بعد أمتار فقط من ضفاف نهر دجلة الخالد وبمحاذاة شارع ابو نؤاس الشهير حيث عادت الحياة إليه وهو يعج اليوم بالمطاعم والمقاهي وانتشرت فيه الحدائق بعد أن تم تطويره مؤخرا. هناك تنتشر ملصقات وإعلانات المهرجان وينتشر متطوعوه وهم يستقبلون ضيوفهم القادمين من العديد من بلدان العالم وفي هذا الصدد تؤكد إدارة المهرجان أنها تسعى للاستجابة لجميع طلبات المخرجين والفرق الإعلامية والصحافية والصحافيين والإعلاميين الذين أعلنوا عن رغبتهم في المجيء إلى بغداد لحضور وقائع المهرجان على أمل أن تتعزز ميزانية المهرجان بشكل جدي لكي تتمكن إدارته من تلبية طلبات الجميع .

وتقدم إلى عموم مسابقات المهرجان أكثر من ٣٠٠ فيلم ستنتظم وتشارك في مسابقات المهرجان الستة مما سيتم اختياره.

وذكرت ادارة المهرجان ان دورة هذا العام تميزت بتنوع لافت للنظر في الأنواع الفيلمية المشاركة وكذلك اهتمام شركات عالمية مرموقة في عدد من الدول الأوربية لعرض نتاجاتها، فضلا عن اهتمام مماثل من دول امريكا اللاتينية .

وبصدد المشاركة العربية هذا العام ذكر مصدر في المهرجان ان اغلب البلدان العربية من المشرق والمغرب سيشارك مخرجوها بأفلامهم وهو دليل على تواصل لافت مع المهرجان وتأكيد تفاعله مع محيطه العربي حيث ستمثل البلدان العربية الآتية في المهرجان وهي مصر وتونس والمغرب والأردن والسعودية والبحرين وقطر والأمارات واليمن وفلسطين والجزائر وسوريا ولبنان بالإضافة إلى العراق.

وتوقعت ادارة المهرجان ان تحتدم المنافسة للحصول على جوائز المهرجان بسبب المستوى المميز للأفلام التي تقدمت للمشاركة فيه.

وأما عن الدولة ضيف الشرف فقد وقع الاختيار على السينما المكسيكية في أوسع مشاركة لها في مهرجان عربي بعدد كبير من الأفلام الروائية الطويلة والقصيرة والوثائقية والرسوم المتحركة.

وأضافت ادارة المهرجان ان قسما كبيرا من الأفلام المشاركة تعرض للمرة الأولى في العالم العربي وحيث عبرت العديد من الشركات والمخرجين من اسبانيا وفرنسا وهولندا والمانيا وبلجيكا وفنلندا والنرويج والسويد وايطاليا واليونان عن رغبتهم في المشاركة في المهرجان في هذه الدورة والدورات القادمة .

وسيشهد المهرجان إقامة ثلاث ندوات متخصصة هي انطلاق أعمال المنتدى الدولي لتطوير السينما العراقية حيث ستنطلق أعماله ابتداءً من هذه الدورة لتتواصل في الدورات المقبلة وسيشهد المنتدى تقديم أوراق عمل من عدد من الباحثين والسينمائيين تتضمن سبل النهوض بالسينما العراقية وتقديم المقترحات اللازمة بشأنها، وأما الندوة الثانية فهي ندوة المخرجات العربيات التي ستقام تلبية للحاجة الملحة لدعم تجربة المخرجات في العالم العربي واما الندوة الثالثة فستخصص لمستقبل الفيلم الوثائقي في العراق والعالم العربي .

كما سيشهد المهرجان نشاطات موازية ممثلة في اقامة المعرض الدولي الرابع للصور الفوتوغرافية الذي استقبل عشرات الصور من انحاء العالم وسيفتتح هذا اليوم فيما ستعلن اسماء الفائزين بجوائزه في اثناء الحفل الختامي للمهرجان .

وسيخصص المهرجان ابتداءً من هذه الدورة يوما خاصا لليتيم العراقي حيث سيستضيف المهرجان يوم الخامس من تشرين الأول/ أكتوبر أعدادا من أيتام العراق من ضحايا الحرب وأعمال العنف وحيث أعدت لهم إدارة المهرجان يوما خاصا حافلا بالعروض المتميزة وخاصة في مجال الرسوم المتحركة .

ومن جانب آخر سيكون مهرجان "كليرمون فيرا" للفيلم القصير في فرنسا ضيفا ، حيث أعلنت إدارة المهرجان ان هذا تقليد جديد سيصار من خلاله استضافة مهرجان سينمائي دولي عريق ليتم عرض مختارات من الأعمال الفائزة فيه .

وسيشهد المهرجان استضافة السينما الهندية في برنامج تحت الضوء وذلك بالتعاون مع معهد السينما في الهند حيث سيعرض المهرجان قرابة الـ٣٠ فيلما من هذه الدولة ما بين روائي قصير ووثائقي وروائي طويل .

وقال طاهر علوان مدير المهرجان في تصريحات صحافية ان هذه الدورة تعد بمثابة التأسيس الحقيقي لمهرجان عراقي عربي دولي ترسخت ملامحه واهدافه وبرامجه وسيتطور قدما ليحتل مكانه بين المهرجانات العالمية لاسيما وان مؤسسة السينما في جمهورية التشيك مثلا قد قررت اقامة ورشة عمل لمدراء المهرجانات من انحاء العالم واختارت لهذه الدورة ١٥ خمسة عشر مهرجانا من انحاء العالم من بين عشرات المهرجانات وكان مهرجان بغداد السينمائي الدولي من بين المهرجانات الخمسة عشر التي تم اختيارها .

وعلى صعيد متصل سيشهد المهرجان عرض أكثر من ٢٥ فيلما عراقيا ضمن مسابقة آفاق جديدة وهي أفلام لم تعرض سابقا في اي مهرجان عربي او غير عربي وبذلك بدأ المهرجان باستقطاب ورعاية الفيلم العراق بشكل خاص والتعريف به وبمخرجيه وخاصة الشباب منهم قبل ان يشارك في مهرجانات أخرى عربية أو غير عربية.

وبسبب كثافة العروض وتنوع برامج المهرجان فستتم استضافة العروض في ثلاث صالات هي صالة فندق عشتار شيراتون وصالتان في كلية الفنون الجميلة، حيث ستتاح لجمهور السينما في العراق فرصة لمشاهدة كما متنوعا من الأفلام من العديد من أنحاء العالم.